البعد الوطني في شعر مفدي زكرياء

د. عبد الوهاب صحراوي
جامعة الجزيرة (السودان)
كلية الآداب
البريد الالكتروني: abdo.sahraoui88@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2022/06/08	2022/07/03	2022/07/30

Summary

This is a research that studies the phenomenon of Algerian literature and its relationship to the homeland, and its blog is confined to modern Algerian literature, which is organized from it, and the study devoted its efforts, trying to how the poets of the Algerian Muslim Scholars Association embody the national dimension in their poetry, depending on the different employment of their concepts.

Keywords: the national dimension, poetry, Mufdi Zakaria.

الملخص

هذا بحث يدرس ظاهرة الأدب الجزائري وعلاقته بالوطن وانحصرت مدونته في الأدب الجزائري الحديث ، المنظوم منه ، وكرست الدراسة جهدها ، محاولة كيفية تجسيد شعراء جمعية علماء المسلمين الجزائريين للبعد الوطني في شعرهم معتمدا على اختلاف توظيف مفاهيمهم.

فجاء بحثنا أكاديميا موسعا ،وقع في ثلاثة فصول نواتها الشعر الوطني ، وغايتها الأساسية كشف صورة الوطنية في الشعر الجزائري الحديث.

الكلمات المفتاحية: البعد الوطني، الشعر، مفدي زكرياء.

تمهيد:

لايخفى على أي قارىء لأشعار مفدي زكرياء ,أن يلاحظ ظاهرة فريدة,مميزة لأشعاره ألا وهي ظاهرة الثورة والتحمس لها,فقل ما تخلو قصيدة من قصائد ديوانه اللهب المقدس من هذه الظاهرة ويعثر على الروح (والروح مذكر) الثوري في أغلب الأحيان .

1-شعره في الثورة الجزائرية:

يظل الحب هو الدافع الذي يرتمي الشعراء من أجله في براكين الثورات شاهدين عليها بشعرهم ومشاركين فيها بأنفسهم حتى تحفل بهم الزنازن وتمتلئ بهم السجون فيدشنون المقاصل غير آبهين بما تفعله أيدي الظالمين والطغاة.

لذا رأينا قبل الحديث عن رحلة الشاعر مع الثورة الجزائرية أن نشرع في الحديث عن وطنية الشاعر، وحبه الخاص لوطنه، ذلك لأن الدارس لشعر مفدي " يلمس في انتاجه المبكر حبا للجزائر جارفا، و حنينا إلى وجهها الذي مازج دمه ودخل شغاف قلبه في هذه العاطفة الجياشة المتدفقة في كل قصائده، وهي تصور لنا حب شاعر حساس يعشق مواطن الجمال في وطنه، فيتغنى به جزءاً جزءاً وموطنا موطنا من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب، ولم نرى بين الشعراء من يدانيه في هذه الخصيصة"[1] ذلك لأن مفدي كان شعاره الوحدة، وحدة الوطن ووحدة الهدف والمصير لأبناء الشعب الجزائري. ومن ثم تغنى بالقطر الجزائري كله ليبرهن على دعوته المنبثقة عن حبه للجزائر جملة وتفصيلا.

وإذا كان التغزل بالجنس الآخر نمطا تقليديا عند الشعراء الشباب في باكورة إنتاجهم، أو في بداية حياتهم الأدبية، فإن مفدي تنزه وهو يافع عن التغزل في الجنس الآخر، ودفعه ذاك الحب وذلك الإعجاب بالجزائر إلى أن يتغزل بها ويضرب صفحا عن التغزل بغيرها، وكأنه كان يمتثل في هذا المنحى الذي نجاه والمسلك الذي سلكه لنداء صديقه وزميله الشاعر (رمضان محمود) حين قال: " من أراد منكم التغزل فليتغزل بوطنه الجميل"[2] الذي أخذ الألباب ولفتت الأنظار بجماله الفاتن حتى وقعت فرنسا في غرامه.

ومن شعر في حبه للجزائر قوله:

رسول الهوى بلغ سلامي إلى سلمي
وعاط حميا ثغرها الباسم الألمي
وناج هواها عل في الغيب رحمة
تدارك هذا القلب أن ينقضى هما
وبث شكاة من مشوق متيــم
له كبد حرى تضيق به غماً
فكم تحت هذا القلب من لاعج الجوى
وكم بين هذا الجسم من أضلع كلمى
وكم من أستار الدجى من مدامع
تكاد من الآلام أن تشرق الظلما
فمن هي يا ترى (سلمى) التي شغفه حبها، وتيمه عشقها؟
بلادي، بلادي ما ألذ الهوى وما
أمر كؤوس الحب ممتزجا سما
بلادي، ألا عطف علي بنظرة
حنانيك ما هذا السلوك ولا إنما
ومذ فتحت عيني المدامع أبصرت
هواك فلا عارا علي ولا لوما[3]

هكذا عن طريق الرمز (سلمى) استطاع مفدي أن يعرب عن حبه الجارف وحنينه القوي إلى بلاده التي أحبها إلا أن الحب نغصه وجود الدخيل الذي رمز إليه بالسم الذي كدر صفاء الحب بمرارته، لذا فالشاعر يطلب عطف بلاده التي أحبها مذ فتح عينيه على هذا الوجود، ولم يسبق له أن أحب غيرها.

فحري بالشاعر أن يتلاعب وغراب الليل في وطنه، ولا يلهو بما يلهى به أترابه لأن وطنه أسير، وأمته ثكلى تدمى بالجراح. وهنا أصبح لزاما على مفدي أن يتخطى سن المراهقة ويتخلص من قيود هوى النفس ليقع في غرام الوطن الثائر.

وإذا غدت ليلى رمزا للمحبوب عند الكثير من الشعراء العرب منذ أن توله بها المجنون عشقا، فإن (ليلى) زكريا هي (الجزائر) ونحسبه قد سبق الشعراء الجزائريين إلى هذا الاستخدام الموحى، كما تدل على ذلك القصيدة التي نشرها سنة 1972 وعمره ثماني عشر سنة[4].

الحب أرقني واليأس أضناني
والبين ضاعف آلامي وأحزاني
والروح في حب ليلى استحال إلى
دمع فأمطر شعري ووجداني
أسامر النجم والألوان هامدة
تصغي أنيني بأشواقي وتحنان
كأنما وغراب الليل منحدر
روحي وقلبي بجناحيه جناحان
نطوي معا صهوات الليل في شغف
نرقب الطيف من آن إلى آن
ولكن أي طيف هذا الذي يترقبه الشاعر طوال الليل؟
رفقا بلادي فأنت الكون أجمعه
لولاك كنت بلادي هالكا فاني
لك الفؤاد وما في الجسم من رمق
ومن دمع ومن جروح وجسمان
لك الرقاب وما في الكون من نفس
هذى عيون الوفاء بأعين إنساني
لك الحياة فجودي بالوصال فما
أحلى وصالك في قلبي ووجداني[5]

يتضح من الأبيات أن حب ليلى عند الشاعر لم يكن عبث الصبية أو أصحاب الشطحات العاطفية، وإنما كان حبا له أدلته القوية ومؤيداته الحقيقة، متمثلة في الفؤاد والروح والدم والجثمان والرقاب، وهذه أدلة قوية وقاطعة على حب الشاعر للبلاد، (الجزائر الثائرة).

وهكذا يتضح لنا أن الغزل عند مفدي كان يتجه اتجاها سياسيا في ك قصائده النضالية، ومبدأ لا يحيد عنه في منحاه الشعري، هذا الاتجاه الذي لا يؤمن إلا بشيء واحد هو تحرير البلاد بالقوة ومواجهة الاستدمار بحد السلاح.

وظل مفدي يتغنى بوطنه، ويحوم حوله على كل غصن وينابيه من كل موطن. وعن هذا الاتجاه الذي برز عند الشعراء الجزائريين، وعند مفدي خاصة يقول الدكتور صالح خرفي: " وإذا تغزل شعراءنا فتغزلهم مناضل هو الآخر وسياسي، وقد تكون هذه الازدواجية بين التعبير الشعري والمضمون السياسي تنفسا عن الذاتية المكبوتة والقومية المضطهدة في آن معا، وإن كان هناك غزل في محبوبته فلا مناص من هذا عند الشعراء، لكن تبقى الصدارة للشعر الوطني... وعندنا يتضاءل الغزل والوصف تحت وطأة التقاليد من ناحية، والانصهار في مأساة الشعب من ناحية أخرى، لكن لا نفتقد النوعين بالمفهوم التقليدي لهما لنعثر عليهما بمفهوم جديد متولد من نفس المأساة ونفس التقاليد.

فإذا نقرأ الوصف، ولكنه وصف قاتم الملامح شجي النبرة، يستلهم المأساة ويسلط الأضواء على زواياها ويتقفى خطى ضحاياها[6].

فإذا اعتبر الشاعر الجزائري أن العزوف عن الأغراض التقليدية شيء تقتضيه الضرورة وتفرضه المرحلة التي يمر بها الشعب الجزائري، فلا لوم على مفدي، وقد ظل يتغزل غزلا سياسيا أو بعبارة أخرى صار الغزل عند مفدي رمزا موازيا، وإن كان يفصح بين الحين والآخر عن حبه لوطنه دون اللجوء إلى الرمز، ومن ذلك قوله:

وطني بالدم الزكي أفديك (م)ك يمينا شريفة وعهودا
وطني في هواك أخلصت شعري وضميري ومهجتي والوجود
وطني أنت جنة الخلد في الأرض (م) فهيهات في الوري أن تبيدا
وطني إننا ضحاياك في السلم وفي (م) الحرب بغية أن تسودا
فإذا شئت فاتخذنا سيوفا واتخذنا إذا رأيت وقودا[7]

أي حب وأي وفاء هذا الذي نلحظه عند الشاعر ونجده عند الفنان الثائر ! عندما يكرس نفسه وما تملك من شعر وضمير وروح، وحتى كينونته. ولا بأس أن يذهب فداء لوطنه الذي أحبه، وأكثر من هذا أيها الوطن:

فإذا شئت فاتخذنا سيوفاواتخذنا إذا رأيت وقودا

ففي سبيل الوطن يصبح كل شيء لا معنى له عند الشاعر حتى تصير النفوس سيوفا بتارة، والأجسام وقودا تتلظى سعير نيران الحر في ساحة الشرف والقداسة ; فداء للوطن وطلبا للحرية !

وإلى جانب الحب للوطن يعتز الشاعر طربا لما حققه الأجداد من انتصارات، ولما توصلوا إليه في عالم الحضارة. ومن هذا المنطلق يرفض الشاعر الحياة في ظل العبودية، ويحفز قومه إثارة النخوة العربية ليمضوا نحو العلا والسؤدد.

نحن قوم جدودنا ملكوا الدنيا
فهيهات أن نعيش عبيدا
صيد في الدماء من نخوة الملك (م)

ينادي بنا العلا والصعودا[8]

وإذا عرفنا حب الشاعر الصادق لوطنه، فإننا لا نر تاب عندما نجده يتغنى ببطولات شعبه ويسجل انتصاراته التي كان يحققها على أعداءه، وبذلك " كان له فضل الريادة في الحلم بالثورة فارتفع إلى مستوى النبؤة، ثم واكب مسيرتها المظفرة لينقل صورا ناذرة من ملامحها البطولية، فكان ممن كتب من قلب الثورة ومن صميم جو الثورات التي سبقتها منذ عشرات الأعوام. نشأ وترعرع هذا الشاعر متبنيا قضية الجزائر بكل مداها وعمقها وبجميع دلالاتها وأبعادها، فعاش تجربة الثورة متحمسا لألام وأمال الجماهير الشعبية الكادحة التي أوقدت لهيبها، ورفعت مشعلها فصور ذلك كله بواقعية حية وإخلاص عميق مساهما في خدمة قضية الوطن الكبرى"[9].

ونحاول في هذه الدراسة أن نتبع خطى الشاعر وهو يجدوا الثورة ويسجل حقائقها ليكون بذلك شاهدا عليها في السجون والمعتقلات تارة، وفي ساحات الجهاد تارة أخرى وهو يكشف الحقد الدفين والمكر المبيت للعروبة والإسلام في الجزائر كما يدحض ادعاءات فرنسا على الجزائر أنها فرنسية مفصولة عن العرب، مقطوعة الصلة بالإسلام دينا وبالعربية لغة !

وهنا نجد مفدي بالمرصاد ليرد على تلك الادعاءات كلها، ويخصص النصيب الأوفر من شعره لتسجيل أحداث تلك الثورة التي برهن الشعب الجزائري من خلالها على أنه لا يستكين للأحداث، ولا يخضع للأعداء، مهما كانت قوتهم واشتد بطشهم، شعب علمته التجارب دربته الأيام أن الحرية تؤخذ ولا تعطى، وأن الحرية عقيدة وجهاد.

وإذا فلا عجب أن يكون الشعب الجزائري كله مجاهدا وجمعية شاعرا، يتغنى بملامحه الثورية وببطولاته الشجاعة. وما مؤلف الدكتور التلي ابن الشيخ إلا دليل على ذلك[10].

كما نجده في القصة الجزائرية التي اتسمت بالواقعية ونقف عند حقائقه في الأدب المكتوب باللغة الفرنسية والتي لا تخرج عن هذا الطابع القومي الصرف، وهو يتركز في الأقصوصة والرواية... إنه إنتاج قلوب عربية استطاع الاستدمار أن يعجم ألسنتها، ولم يستطع أن يعجم قلوبها. ومن أبرز كتاب هذا النوع (مولود معمري) و (محمد ديب) و (كاتب ياسين)، و (مالك بن نبي)[11].

كما نجد هذا الاتجاه الثوري والمنحى القومي عند محمد العيد ورمضان حمود وبلقاسم خمار وصالح خرفي ومفدي زكريا. ونستطيع أن ننتهي إلى أن " الأدب الجزائري والثورة الجزائرية شقيقان توأمان ليس فقط لأنهما برزا في أفق النهضة العربية والآمال الإنسانية الكريمة، بل لأنهما كليهما تعبير عن روح الشعب الجزائري الباسل الصامد في معركة الكرامة الإنسانية والحرية الإنسانية. فالأدب الجزائري أدب ثوري بأتم معاني الكلمة، أدب يعيش الثورة ولا يتحدث عنها ويدعو إليها فحسب... وقد كتبت الثورة الجزائرية ببطولات الملايين من أبناء الشعب الجزائري صفحات مشرقة يندر مثليها في تاريخ الإنسان، فلا عجب أن تنعكس هذه الثورة على أقلام الكتاب الجزائريين"[12].

ومن خلال هذه الشهادة التي حظي بها الأدب الجزائري أيام الثورة من الدكتور (شكري عياد)، ننتهي إلى أن معجزة الثورة الشعبية تضحى بالدم الإنساني، لا تضحى بشيء أغلى من الإنسان وهي ترفع الإنسان فوق نفسه. وعندما يجد الأديب الصادق ثورة كهاته فإنه يعانقها بكل روحه ويهبها كل سبحات خياله كما يهبها دمه:

حبست شعري وإلهامي على وطني

فانساب ينشر في الدنيا معالينا
وهمت بالثورة الكبرى أساوقها
أهز في الثورة الكبرى رواسينا
حلقت كالنسر في آفاق حاضرنا
وغصت كالسحر في أعماق ماضينا
كم صفقت لأناشيدي مدافعنا
وأطرقت لتسابيحي نوادينا
فكان شعري والرشاش في مدح
هذا يغنى وهذا يزجى التلاحينا
وللجزائر تبيانا تلقنه
من ليس يفهم في الدنيا معالينا[13]

هكذا انبري مفدي يخدم الثورة الجزائرية بشعره. والشعر هو النوع الأكثر استجابة للتحولات التي تعبر حياة المجتمع من بين كافة الأنواع الأدبية الأخرى، فقد منح فرصة المشاركة المبكرة والمباشرة، ذلك أنه في بعض الحالات أو المراحل المختلفة للحركات الثورية يصبح الشعر كما يقول الدكتور عز الدين إسماعيل: " أقرب أشكال التعبير الأدبي وأنسبها، ففيها يصبح العمل الشعري جزءا من الشعر الثوري لا ينفصل عن حركة الجماهير الشعبية"[14] وهو بهذا يخلق المعادل الثقافي للكفاح المسلح، وهو نوع من الهجوم الثقافي المضاد لثقافة الاحتلال كما يقول أدوينس[15].

وإذا انقلبت الموازين واهتزت القيم عند الأمم والشعوب بليل الاستدمار الفرنسي في الجزائر، فإن مفدي يسجل ذلك الأسلوب

وإذا انقلبت الموازين مرة أخرى وتأرجحت المفاهيم، ومالت الكفة فكانت لصالح الطغاة والظالمين فإن القانون الكوني يظل ثابتا، وسنة الله في عباده تبقى سارية المفعول متجلية في قوله تعالى: " إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم"[16].

" فهاتان الآيتان إذا أشادتا بالسعي الإنساني وما له من أثر، فقد أهابتا، بالمسلم أن يكون دوما على يقظة واستعداد للإحاطة بأي نظام بغيض مثير للسخط أو لاستبقاء المرضي عليه من النظم والحفاظ عليه"[17] واستجاب الشاعر لهذا النداء العلوي والقانون المطرد ونادى في قومه محذرا إياهم على أن الفشل سيكون حليفهم إذا رضوا بالذل واثاقلوا إلى الأرض.

وهدف الشاعر من وراء هذا إثارة الهمم وهز النفوس حتى يهب شعبه ثائرا في وجه العدو، ثم يلتفت الشاعر إلى فرنسا التي ظلت تخادع وتمارى بالوعود الكاذبة لتفويت الفرصة بالرغم من أن الشعب كان يرفض ذلك ولقيه:

يا فرنسا كفى خدعا فإنايا فرنسا قد مللنا الوعودا !
صرخ الشعب منذرا فتصاممت وأبديت جفوة وصدودا[18]

ولما لم ينفع الكلام أمام القوة، ولم يجد الصراخ أمام الوعد الكاذب، فإن الرشاش قد انطلق ليعطي قولا مفيدا من شعب ثائر صمم أن لا يتوقف حتى الاستقلال:

سكت الناطقون وانطلق الرشاش

يلقى إليك قولا مفيدا

نحن ثرنا فلات حين رجوع

أو ننال استقلالنا المنشودا

وفي سبيل هذا الاستقلال لحق الشعب العذاب الأكبر، ومع ذلك لم يزدد إلا بسالة، وكان كلما ضاعفت فرنسا من عذابها زاد هو الآخر من تحديه لها. بتقديم الضحايا لتغدو وقودا لنار الحرب:

يا فرنسا امطري حديدا ونارا

واملئي الأرض والسماء جنودا

واضرميها عرض البلاد شعاليل (م)

فتغدو لها الضعاف وقودا[19]

فالحرب لم تكن دائرة بين الجزائر وفرنسا على الجوانب المادية وحدها وإنما كان الأمر يتعداه إلى أكثر من هذا فالتصريحات التي أذلى بها القادة الفرنسيون والأعمال التي قاموا بها من حرق مساجد واغلاق مدارس لا تتسع لها صفحات الفصل " ونكتفي بالإشارة والتنويه إلى تلك العبارة الجامعة المانعة التي انطلقت كالرصاص أو أشد في عالم العقائد والقيم، حيث قال الوزير (بيدو): (إنني لن أترك الهلال ينتصر على الصليب)[20].

وهنا نجد مفدي يرد على (بيدو) وعلى حذا حذوه متحديا إياهم بقوله:

سوف لا يعدم الهلال صلاح الدين (م)

فاستصرخى الصليب الحقودا

وفي سبيل الوطن المسلوب والعقيدة المحاربة ذهب الشعب الجزائري يسبح على دمه يريد الوصول إلى حيث تعسكر سفينة السلام وتشرق شمس الحرية والسيادة الوطنية، وإذا اعتاد الناس أن يتبرعوا بأموالهم فإن الشعب الجزائري ــ هاهنا ــ كان يتسابق إلى التبرع بالأرواح:

والشعب يسبح للعليا على دمه

وللتبرع بالأرواح يستبق

ولم يعرف الوهن إلى نفسه سبيلا ولا الإرهاق طريقا ما لم يتحقق الهدف المنشود والغاية المرجوة، وإن أحرقته فرنسا بنيرانها أو شنقته بحبالها فهو شعب:

لم يثنه دون إدراك المنى رهق

وإن هم أحرقوا بالنار أو شنقو[21]

هكذا أصبحت الموت عند الإنسان الجزائري سواء لما سلبت كرامته واعتدى عليه في عقر داره !

ولما لم يؤت أسلوب الترهيب أكله استبدلت به أسلوب الترغيب طمعا في أن يضع الشعب السلاح، وهيهات أن يفعل ذلك وقد ضربت فرسنا معه عهودا إلا أنها لم تف بها:

وضع السلاح أحاديث ملفقة

خرافة صاغها للكيد مختلف

لا تشغلينا بأثواب وأرغفة

أهدافنا المجد ليس الخبز والخرق

فكم قطعت عهود أصبحت حلما

حتى غدونا بغير الحرب لا نثق[22]

وهنا تجد المؤرخ (أحمد توفيق المدني) ينادي في شعبه قائلا: " إن العصر عصر القوة، لا عصر الحق. فما دمنا نقدم الحق وندافع عنه بصفته حقا لا يعتمد إلا على النظريات والأقوال، فسوف لا نلاقي في نضالنا إلا الخيبة والفشل. علينا أن نكون أنفسنا تكوينا جديدا قويا. تكون قوتنا فيه مادية فعالة، قوة كفاح سلمي مشروع يعتمد على المال الوفير والرجال الأقوياء المتعاضدين. عندئذ فقط، إن تكلمنا استمع الناس لمطالبنا، وإن اتجهنا نحو الحكومة عاملتنا كما تعامل الأقوياء، لا كما تعاملنا اليوم !"[23].

ومن ثم أصبح الشعب لا يؤمن إلا بالقوة كوسيلة لبلوغ مناه، وهنا نجد " مفدي " شاهدا على ذلك التحول الخطير الذي أصبح في فكر الإنسان الجزائري وعيا سياسيا نجده عند المجاهد، وتحولا جذريا عند الأديب، وعن ذلك الانقلاب الفكري والتحول الخطير يقول مفدي:

حقوقنا بدم الأحرار نكتبها لا الحبر أصبح يعنينا ولا الورق

" إنها لشرعة السماء غير نفسك تغير التاريخ، وعلى هذه الكلمة بدأ الإصلاح الجزائري من النفس هدفا في جوهره إلى تغيير الإنسان فبعث فيه روحا وثابة، أشرقت معها بوادر النهضة الكبرى، وكان الانطلاق الرائع للضمير الشعبي فيما قبل 1936 في انسجامه واطراده وحماسه، وهو ملحمة الفكرة الإصلاحية التي توجها المؤتمر الإسلامي المنعقد في سنة 1936، ولم يتخلف الأدب الجزائري عن الركب فقد بدأ يصور البلاد في قصائد جدد فيها نشاطه بعد ركود طويل، وكانت تلك القصائد تغنى ربي النهضة أي ربيع الفكرة لا ربيع الصنم[24] تغنى للثورة وتتغنى بها. وتبين للشعب أن الحديد بالحديد يفلح، وأن ما أخذ بالقوة لا ترجعه إلا بالقوة. وحينئذ تنبه من تعامي عن الحق الذي تطلبه الأيدي المخضبة بالدماء:

وحرب للكرامة في بلاد مضت تفتك عزتها غلابا

أوفدت الرصاص ينوب عنها يناقش غاصب الحق الحساب

أيقظت القنابل من تعامي وأسدل فوق ناظره نقابا[25]

وإذا كانت فرنسا تتفنن في في وسائل التعذيب لتحد من عزيمة الشعب الجزائري، وهو يدافع عن حقه، فالشعب لم يقف وقفة المتفرج، و إنما كان يبدع في أساليب التحدي، فتارة كالطيور الكواسر وأخرى كالصقور الجوارح، وثالثة يصول في ساحة الشرف كالأسود الغضاب. ولم يثنه في سبيل الهدف المنشود جميع الوسائل التي كانت تستعملها فرنسا معه من سجن أو شنق... بل اتخذ الأرواح مهرا للحرية الغالية:

وثبنا كالكواسر واتخذنا إلى استقلالنا الأرواح طرقا

فلا تخشى العذاب ولا نبالي إذا وجب الفداء سجنا وشنقا

نزلنا من معاقلنا صقورا وصلنا في الوغى أسدا غضابا[26]

وإذا كانت الحرية هي أثمن ما يملكه الإنسان في هذه الحياة وأسمى ما يهدف إليه ليحقق من خلاله وجوده، فإن الشعب الجزائري كانت قرابينه لذلك المطلب العزيز (الأرواح) فداء للجزائر لتحيا عزيزة الجانب موفورة الكرامة، ومن ثم سجل التاريخ للثورة الأسطورة بطولات قل نظيرها، ومواقف قد لا يوجد الزمان بمثلها.

وعن ذلك الأثر الذي تحدثه الموقف ويخططه الرجال يقول المفكر الإسلامي الكبير مالك بن نبي: " وإذا كانت كل قضية جليلة تضع بصمتها في مصير الإنسانية وتترك صداها في التاريخ، ترسم على مركب الزمن وجوها كريمة تمثلها".

وهذا ما أحدثته الثورة الجزائرية لما قلبت من التاريخ وجها حين جاءت بالخوارق والمعجزات. وعندئذ لم تترك لنا كرها ريبة أو شكا، لأن الثائرين لم يرضوا بأن تساوم مأدنهم أو تغتصب سلطتهم على وطنهم. كما لم يقبلوا البتة شريكا لهم في وطنهم مهما كان المقابل لذلك ولو كانت الدنيا لهم منابا، وعن هذا يقول مفدي:

وفي استقلالنا لنا متن كرام اوبلغنا الرسالة من تغابا

وقلبنا من التاريخ وجها وجددنا لهيكله إهابا

وجئنا بالخوارق معجزات فلم نترك لنا كرنا ارتيابا

فلا نرضى مساومة وغبنا ولا نرضى لسلطتنا اغتصابا

ولن نرضى شريكا في حمانا ولو قسمت لنا الدنيا منابا

ومن الثورات التي قلبت المفاهيم في تاريخ الثورات، ثورة الفاتح من نوفمبر 1954، وهذه الثورة تعد منعطفا تاريخيا في سياسة الثورة الجزائرية وموقفها من الأساليب اللإنسانية، والوعود الكاذبة التي كانت تضربها فرنسا للشعب الجزائري إلا أنه كان يعترف بالأماني المعسولة، ولا يؤمن إلا بالقوة، وثورة نوفمبر التي أحدثت ضجة في تاريخ الثورات لم تأت صدفة، وإنما امتدت جذورها إلى الأمير عبد القادر، وجهاد الأمير خالد، وحزب الشعب، وجمعية العلماء كذلك " أن الترابط يلحظه رجال الفكر والتاريخ والمشتغلين بالسياسة بين الثورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية من جانب، وبين الحركات الفكرية التي مهدت لها من جانب آخر. وأواصر أوثق مما يتبادر إلى الذهن، ونحن نعلم ما كان لجماعة " الأنسيكلوبيدين " من أثر في بعث الثورة الفرنسية، وما لعبته آراء ماركس من دور في بعث ثورة أكتوبر. وأنه ليبدو لي في عالمنا الإسلامي أننا لم نبرز دور أفكار (ابن تومرت) المتلقاه خاصة عن الغزالي في سقوط دولة المرابطين، وقيام دولة عبد المؤمن بن علي. كذلك لا يحسن التغاضي عما استفاده سعد زغلول باعث الشعب المصري في نظريات الشيخ محمد عبده. وبالنظر إلى الجزائر فإن التاريخ سوف يثبت أن ثورة غرة نوفمبر 1954 لم تكن حدثا مرتجلا، أو هي كما قيل (رعد قصف في جوعمة الصحو) لكنها النتيجة الحتمية لتطور بطيء الحركة ترجع أصوله ومغارسه إلى الأمير عبد القادر، وهو الذي كتب بجهاده بعد زهاء القرن أن يبعث من مرقده، وينمو ويزدهر على أيدي الأمير خالد، وحزب الشعب، وجمعية العلماء "[27].

وهذا مما يدل على أنه من العبث أن يؤرخ لثورة أو قضية لها خطرها في دفع عجلة التاريخ خطوة إلى الأمام دون الالتفات إلى الجذور التي استمدت منها قوتها، وإلى المنطلقات التي أخذت منها ة لتسير نحو الأفضل. وثورة نوفمبر لم تكن حدثا مرتجلا، وإنما كانت الحتمية لتطور بطيء الحركة ترجع أصوله ومغارسه إلى جهود

سابقة لذلك كانت فاصلا تاريخيا في حياة الجزائر وفي عمر الثورة، وبها تغيرت المفاهيم وانقلبت الأوضاع رأسا على عقب. وتبعا لذلك تغير موقف الإنسان الجزائري من الفكر والأدب والسياسة وشتى نواحي الحياة، وتصديقا لأثر ثورة نوفمبر ارتمى الشعب الجزائري في أحضان الثورة بكل ما لديه، وم يبخل بالنفس والنفيس في سبيل أن تحيا الجزائر عربية مسلمة مرفوعة الرأس موفورة الكرامة. وعن قيمة هذه الثورة وعن أثرها الذي تركته يقول مفدي:

دعا التاريخ ليلك فاستجابا (نوفمبر) هل وفيت لنا الخطاب؟
وهل سمع المجيب نداء شعب فكانت ليلة القدر الجواب؟
تبارك ليلك الميمون نجما وﷲ هتك الحجاب
زكت وثابثته عن ألف شهر قضاها الشعب يلتحق السراب
تجلى ضاحك القسمات تحكى كواكبه قنابله لهابا

ولما كان لليلة الفاتح من نوفمبر خطرها، قارنها بليلة القدر التي كانت منعطفا خطيرا في تاريخ البشرية، لما اتصلت السماء بالأرض، وبدأ الوحي يتنزل على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، فأجل الشاعر هذه الليلة (ليلة نوفمبر) وباركها وأجل ليلها التي هتكت فيه الحجب التي كانت تواري النور، فكانت كما كانت ليلة القدر (خير من ألف شهر) وإن كان الشاعر قد أسرف في المبالغة لما جعل ليلة نوفمبر كليلة القدر وإن كان لا يقصد المبالغة لذاتها، وإنما ليدلل على قيمة هذا اليوم وأثره في الثورة.

وإن ارتبطت في النقد العربي القديم عامة الصدق والكذب والمبالغة والالتزام بالواقع. فالمبالغة إذا جاوزت المألوف اعتبرت كذبا ــ عند بعض النقاد ــ والالتزام بالواقع ورعاية الممكن والمعتاد هو الصدق بعينه، ولم يعد أبدا من الكذب أن يقول الشاعر عكس ما يعتقد أنه الحق. ولعل أوضح ما يبرز نظرة القدماء إلى المراد من الصدق والكذب، هو قول عبد القاهر الجرجاني، تعقيبا على قول البحتري:

كلفتمونا حدود منطقكموالشعر يغنى عن صدقه كذبه

" أراد كلفتمونا أن تجري أن تجري مقاييس الشعر على حدود المنطق، ونأخذ أنفسنا بالقول المحقق حتى لا ندري إلا ما يقوم عليه من العقل برهان يقطع به ويلجئ إلى موجبه مع أن الشعر يكفى فيه التخيل والذهاب بالنفس إلى ما ترتاح إليه من التعليل، ويقول أيضا: يفسر المراد من النظرتين المعروفتين (خير الشعر أصدقه) إلى التحقيق والتصحيح واعتماد ما يجري من العقل على أصح صحيح، أحب إليه وآثر عنده، إذا كان ثمره أحلى، وأثره أبقى وفائدته أظهر وحاصله أكثر. ومن قال أكذبه ذهب إلى الصنعة أنما يمد باعها وينشر شعاعها ويتسع ميدانها وتتفرغ أفنانها حيث يعتمد الاتساع والتخييل ويدعي الحقيقة فيما أصله التقريب والتمثيل حيث يقصد التلطف والتأويل"[28].

وعلق على هذا الدكتور عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال بقوله: " فالفاصل بين الصدق والكذب ليس في مناقضته الحقيقة والاعتقاد بها، وعبد العال بقوله: " فالفاصل بين الصدق والكذب ليس في مناقضته الحقيقة والاعتقاد بها، وإنما في تصويرها. فمن اعتمد المبالغة والتخيير والتجوز والاتساع، كان كاذبا. ومن آثر ترك المبالغة والإغراق واعتمد على التحقيق والتصحيح كان صادقا. وواضح أن المراد بالصدق هنا ليس الصدق الفني. وإنما صدق الواقع والكذب أيضا هو كذب الواقع"[29].

ولعل شاعرنا كان له حظ في مبالغته هذه في صدق الواقع شيء مادام يتحدث عن دور ثورة هزت المفاهيم الفكرية وقلبت الأوضاع السياسية في العالم رأسا على عقب. وإن كانت هذه الثورة في حقيقتها وفي أثرها لا ترتقي إلى مستوى ليلة القدر التي تضاهيها ليلة، وقد جلاها الله لوقتها فكانت بداية اتصال الأرض بالسماء.

ثم يسترسل الشاعر في تصوير ذلك الحدث التاريخي وهو سجين التصوير القرآني بلفظه ومعناه:

بنـــاشئة هنــاك أشـد وطـــأ وأقوم منطقا وأحد نابا
مضت كالشهب وانحدرت شظاياتلـــهب دجنتها التهـابا
مـــلائك بالفـــواتك نـــازلات بإذن الله أرسلها خطابا
تنزل روحها من ك شهر بأحرار الجزائر قد أهابا[30]

" إنا أنزلناه في ليلة القدر، وما أدراك ما ليلة القدر، ليلة القدر خير من ألف شهر، تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر، سلام هي حتى مطلع الفجر"[(*)].

كما رأينا فقد كان الشاعر متأثرا بالسورة القرآنية إلى حد الإعجاب وبالحدث إلى غاية الانبهار، فبقي مشدوها: تشده آيات السورة إليها فلم يجد بدا من المقارنة بين ليلة القدر وليلة أول نوفمبر وإن كان هذا أمرا مبالغا فيه كما سبقت الإشارة.

وإذا كانت فرنسا قد ركزت على مناطق بعينها لأمر يهمها فهذا لم يمنع من أن تكون الثورة في كل شبر من أرض الجزائر. ولما كان مفدي هو شاعر الثورة الجزائرية لم يفته أن يسجل ذلك التضامن والموقف الموحد الذي كان يقفه الشعب الجزائري من فرنسا ليبين أن الثورة لم تكن مقتصرة على منطقة دون أخرى، وإنما نيرانها عمت البلاد وإن كانت قوافل الجيش الفرنسي تعسكر في أماكن معروفة فإن ذلك لم يمنع ابن الجزائر الذي يقيم في المكان الآخر أن يسقط شهيدا في هذه البقعة التي يشار إليها في كل مناسبة. والحق أن الثورة اشتد لهيبها في كل شبر من الجزائر، وتلظى سعيرها كل جزائري عاش الثورة:

هذى الجبال الشاهقات، شواهد سخرت بمن مسخ الحقائق وادعا
سل جرجرة تنبئك عن غضباتها واستفت (شليا) لحظة وشلعلعا
واخشع بـ(وارشنيس) إن ترابها ما انفك للجند المعطر مصرعا[31]
كسرت تلمسان الضليعة ضلعه ووهى بـ (صبرة) صبره فتوزععا
ودعاه مسعود فأدبر، عندما لاقاه (طارق) سافرا ومقنعا[32]

ويظل صدى ليلة نوفمبر في نفس الشاعر، فكلما دارت دورة عز عليه أن تمر دون أن يشيد بها معتزا، وأن يتحدث عنها مفتخرا. " ذلك أن التأييد الذي نالته الثورة الجزائرية بها في المحافل الدولية كان أكثر مما أحرزته من قبل"[33].

وإذا أقام الشاعر في المناسبة الماضية مقارنة بين أول نوفمبر وأول ليلة نزل فيها القرآن الكريم، فإنه يعيد الكرة ثانية وللتكرار دليله المتمثل في عظمة ليلة القدر بالنسبة للإنسانية، وأول نوفمبر بالنسبة للقضية الجزائرية التي طال انتظارها لهذا اليوم الذي " أرجع للجزائر حريتها وكرامتها وأعاد لها قيادتها، ومكانتها بين الدول، وساهم إلى أبعد حد مباشر في استرجاع بلدان المغرب العربي كلها حريتها واستقلالها وسيادتها، وفي تحرير المستدمرات

الفرنسية في افريقيا كلها وضربت الجزائر بفضله بقسط وافر في معركة تحرير العالم الثالث و حريتها وكرامتها وأعاد لها قيادتها، ومكانتها بين الدول، وساهم إلى أبعد حد مباشر في استرجاع بلدان المغرب العربي كلها حريتها واستقلالها وسيادتها، وفي تحرير المستدمرات(*) الفرنسية في افريقيا كلها وضربت الجزائر بفضله بقسط وافر في معركة تحرير العالم الثالث وإقعاد المعتدين مقعد خزي وعار"[34].

ولذلك حاول مفدي أن يعبر عن هذا اليوم تعبير الشاعر المجل لكل عظيم في ثقافته ومقدر لكل جليل عند أمته، وكل ذلك بأسلوب المتحكم في ناصية لغته: تلك اللغة التي يتجلى فيها القرآن الكريم بألفاظه ومعانيه ونجد ذلك في تلك الملحمة التي نظمها في الذكرى السابعة للثورة الجزائرية (1961) يوم كان مفدي في لبنان يمثل الجزائر في مؤتمر الأدباء العرب، وإذ ذاك اغتنم الفرصة لطبع ديوانه الأول (اللهب المقدس). وقد أديعت تلك الملحمة يوم الفاتح من تشرين الثاني (أي يوم الذكرى) في جميع العواصم العربية كلها احتفاء بذكرى الثورة الجزائرية[35]. ومن هذه الملحمة ما يدور على نوع من الفخر والاعتزاز بأمة استطاعت بثورتها أن تخترع العجائب.

فلقد مدت خيوط الفجر وراحت تنسجه وكتبت سطور البعث وراحت تحققه وغاصت في صدر الغيب لتجلو ضميره وتكشف عن أسراره وخفاياه، وتقرأ ما خطت السماء فيه من كلام العدل. " وبفضل الرصيد الذي توفر هذه الثورة تمكن الجزائريون من إرغام الدهر وإذلال كبريائه وتحطيم غروره، وإخضاعه لارادتهم ولقد خاضوا ظروف الزمان ورضوا أحداثه وصنعوا النصر الذي وعدوا به أنفسهم"[36].

مددنا خيوط الفجر قم نصنع الفجرا وصغنا كتاب البعث قم ننشر السفر
وغصنا بصدر الغيب نجلو ضميره ونقرأ عدل السماء به سطر
ودسنا غرور الدهر في كبريائه فصعر خدا، وانحنى يطلب العذر؟
وغضنا تصاريف الزمان نروضها ونصدع ـ بالعجاز ـ أحداثها السكرى
ورعنا الليالي الحبليات فأجهضت ولم نك نخشى من عجائبها شرا[37]

وبعد أن يحدد المعجزات التي صنعتها الثورة الجزائرية، ينتقل إلى التنويه بالجانب الإسلامي من هذه الثورة، كونها ثورة مباركة مقدسة مرتبطة بالإرادة الإلهية. وكأن الدعوة إلى المشاركة فيها هي دعوة الله وتدبير منه، ونفحة من قدره، لذلك عد الانخراط فيها من الجهاد وتلبية لرغبة الله:

تباركت شهرا بالخوارق طفحا وسبحان من بالشعب في ليله أسرى
فكم كنت يا رحمن في الشك غارقا فآمنت بالرحمن في الثورة الكبرى
وكم كنت بين الكاف والنون حائرا ومذ قلت ـ يا رب ـ جنبتني الكفر
ولباك شعب كاد يفقد ظنه (بوعدك) لولا أنه يحفظ الذكرى
ويقرأ في التنزيل بعد صلاته بأنك بعد العسر تغمره يسرا
وأشربته حب الشهادة فارتمى على غمرات الموت تلهبه الذكرى
وطالبته بالمهر إن رام عزة فأسرع من أرواحه يدفع المهر
ولقنته أن الجهاد عقيدةطوى الأزل العلوي في صدرها سر
ودون منال المجد جسر ومعبر فراح على أكباده يقطع الجسر

وأعلنت إفلاس السياسة فانبرى بسوق المنايا صامدا يفتح التجر
وفي ساحة التحرير سوق قوامها ضمائر قوم لا تباع ولا تشرى[38]

إن الشهر الذي اندلعت فيه الثورة هو الشهر مبارك، وأن الليلة الأولى التي خرج فيها الثوار لإعلان ثورتهم هي بمثابة ليلة الاسراء والمعراج التي ورد ذكرها في القرآن الكريم. وكثيرا ما مر على الشعب الجزائري من ويلات وما تعرض له من ظروف القمع والكبت والإذلال حتى أضحى الشك يساور الشاعر إيمانه ومعتقداته، حتى كانت الثورة الكبرى التي أعادت إليه الإيمان الذي لا يتزعزع. ولقد حير عقل الشاعر ما ورد في القرآن الكريم، من قوله تعالى للشيء كن فيكون: " إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون"[39] وكاد الشاعر أن يقع في الكفر لولا ما رآه من تحقيق هذا القول في ثورة الجزائر. وعند ما أعلن الله عن تأييده لهذه الثورة هب الشعب الجزائري برمته فلبى وعد الله لإيمانه الشديد بإرادة الله وقضائه وقدره وعنايته وحكمته وحسن تدبيره، وما جاء في آياته البينات، من أن بعد العسر يسرا. ولقد أشرب الجزائري حب الشهادة من الكتاب المنزل، فارتمى على غمرات الموت غير هياب لها، وأدرك أن الحرية والحياة العزيز مهرهما غال، فراح يدفع هذا المهر من روحه، وقد آمن بأن الحياة عقيدة وجهاد وبأن بلوغ المجد لا يكون إلا على جسر من التضحيات، فراح يقطع هذا الجسر على أكباده. وعندما أفلست السياسة، ووصلت بحقوق الجزائريين إلى الطريق المسدود راح الشعب الجزائري يشق هذا الطريق بسواعده وأفئدته ودماء بنيه، وفتح للمنايا سوقا عريضة في ساحة التحرير بضمائر حية، لا تباع ولا تشترى، وعلى هذا النحو يمضي الشاعر في إظهار قدسية الثورة الجزائرية وجعلها ذات مضمون عقيدي ديني، وارتباط الإرادة الجزائرية.

وعن الدور البطولي الذي لعبته الثورة الجزائرية، وبه أعطت الوجه الحقيقي للإنسان الجزائري المعتز بدينه ولغته يقول الدكتور أحمد أبو حاقه: " ولقد استطاعت هذه الثورة أن تفرض احترامها على العالم وبالتالي احترام الوجود الجزائري. وألقت دروسا في البطولة على شعوب الدنيا، وتركت الأجيال تتحدث عن أخبارها، ولا ريب في أن الثورة الجزائرية كانت أما للثورة الإفريقية التي اندلعت فيما بعد، فلقد علمتها كيف تعصف بالأصنام وتذرو حطامها هشيما، وكيف تهدى النفوس الحيرى إلى الحق والعدل والحرية، وما أكثر ما تعرضت له هذه الثورة من المماطلة والجدل والمناوءة والتعصب. وما عقد في هيئة الأمم المتحدة باسمها من ندوات، وما تاجرت به الدول يمينا ويسارا فلم تنحرف ذات اليمين ولا ذات اليسار، وإنما مضت في دربها المستقيم لتعلم الشعوب جميعا الحقيقة الآتية:

وإذا ما الضعاف الصامدون تنمروا
فلا يقصر في الأرض يبقى ولا كسرى
عبرنا على السبع الشداد نشقها ولم تثننا الأرزاء أن نعبر العشر
ونفرض في الدنيا احترام وجودنا وننشر في أحلافها الرعب والذعر
ونقلى دروسا في البطولة للورى ونترك للأجيال عن حربنا خبرا
وتشرق في الدنيا رسالات بعثنا فتبيض بالإشعاع (افريقيا السوداء)[40]

هكذا تكون الثورة الجزائرية في نظر مفدي زكريا ثورة إنسانية حضارية، تفتح أمام الشعوب المظلومة أبواب النور لتقتدي بها وتحرر نفسها من ربقة الظلم والاستعمار والاضطهاد"[41].

الهوامش:

(1-2) الدكتور محمد ناصر، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، ص11.

[3] جريدة المغرب (الجزائر) العدد 13 في 1930/8/20.

[4] محمد الهادي السنوسي، شعراء الجزائر، في العصر الحاضر، ج1، ص153.

[5] د. محمد ناصر، مفدي زكريا شاعر النضال والثورة، ص137.

[6] مجلة المجاهد الثقافي، (الجزائر) في 1969/5/6.

[7] جريدة الوطن (تونس) في 1937/8/5، وانظر شاعر النضال والثورة، ص174.

[8] المرجع السابق، ص147.

[9] جريدة الجمهورية (الجزائر) في 1984/11/5.

د.التلي بن الشيخ، الأدب الشعبي وأثره في الثورة الجزائرية من 1830-1954، الشركة الوطنية لنشر والتوزيعن 1983، يبين [10]هذا المؤلف أثر الأدب الشعبي من بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر إلى ثورة نوفمبر 1954.

[11] جريدة المساء المصرية، في 1961/9/18.

عبد الله الركيبي، نفوس ثائرة، القاهرة، الدار المصرية للطباعة والنشر والتوزيع، 1962، ص5-6، من مقدمة الدكتور شكري [12]عياد.

[13]اللهب المقدس، ص227.

(2-3) د. عز الدين اسماعيل، الشعر في إطار العصر الثوري، بيروت دار القلم، 1974، ص79.

[16] سورة الرعد، الآية 11.

[17] د. أحمد طالب الإبراهيمي، رسائل من السجن، ترجمة: صادق مازيغ، تونس الدار التونسية للنشر، 1973، ص19.

[18] المصدر السابق، ص17.

[19] المصدر السابق، ص17.

[20] مالك بن نبي في مهب المعركة، بيروت، دار الفكر، 1981، ص56.

[21] اللهب المقدس، ص27.

[22] نفس المصدر، ص28.

[23] بسام لعسيلي، عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، ص188.

[24] مالك بن نبي، شروط النهضة، بيروت،دار الفكر، 1963، ص44-45.

(1-2) اللهب المقدس، ص41.

[27] أحمد طالب الإبراهيمي، رسائل من السجن، ص46.

[28] أنظر عبد القهار الجرجاني، أسرار البلاغة، ص235-236-237.

د. عبد السلام عبد الحفيظ عبد العال، نقد الشعر بين ابن قتيبه وابن طباطبه العلوي، القاهرة، دار الفكر العربي، 1978، [29]ص271.

[30] اللهب المقدس، ص30-31.

(*) سورة القدر من الآية أولى إلى الخامسة.

تلاحظ السخرية العابرة عن رفاهية الجند الذين لقوا مصرعهم في ذلك التراب والشاعر يستعمل هذا التعبير " الجند المعطر" [31]غير مرة.

[32] اللهب المقدس، ص66.

جريدة المسا، الجزائر، العدد 27 في 1985/11/1.

(*) يرى الأستاذ مولود قاسم أن الاستعمال الصحيح لكلمة (الاستعمار) هو الاستدمار، لأن طبيعته التدمير لا التعمير.

[34] الأستاذ مولود قاسم، ردود الفعل الأولية داخليا وخارجيا على غرة نوفمبر أو بعد مآثر فاتح نوفمبر (محاضرة).

[35] اللهب المقدس، ص305.

[36] د. أحمد أبو حاقه، الالتزام في الشعر العربي، بيروت، دار العلم للملايين، 1979، ص995.

[37] اللهب المقدس، ص30.

[38] نفسه، ص309-310.

[39] سورة يسن، الآية 82.

[40] اللهب المقدس، ص311-312.

[41] الالتزام في الشعر العربي، ص699.